لماذا رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي؟ (*)

تمهيد لابد منه:

ترجع فكرة هذا البحث ، وبذرته الأولى إلى سنواتٍ بعيدة ، حين قدّر لي أن أعيش في قطرٍ عربي شقيق هو «السودان» بضع سنين، وهناك بدأت أرى حياة هذا القطر على صورةٍ غيرِ الصورة التي رسمتها الدراسةُ والكتب في ذهني ، وجلستُ إلى شيوخ هذه البلاد ومعمريها ، أسمع منهم ذكرياتهم ، وحكايات شبابهم ، يحكونها على البديهة مفعمة بالمشاعر، مليئة بالأحاسيس. وكان أن رأيت لهذه البلاد تاريخاً غير التاريخ الذي قرأته ، وواقعاً غير الذي تصوّرته ، أو بالأحرى صُوِّر لي.

اتفق ما سمعته مع ما قرأته إلى حد كبير في الأحداث نفسها والوقائع ذاتها، ولكن كان الخلاف واسعاً جداً ، وعميقاً جداً في تفسير هذه الأحداث والوقائع .

وأضرب مثالاً واحداً على ذلك ، هو وجود جاليات مسيحية كثيرة في مدن السودان الكبرى ، كانت المقولة الشائعة الذائعة أن هؤلاء نزحوا من شمال الوادي «مصر» إلى جنوبه ، هرباً من استبداد المسلمين وظلمهم ،

(*) نشر في العدد الأول من حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، بجامعة قطر ، ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م .

وأشاع ذلك كل من كتب في هذه المسألة من الانجليز والمسيحيين أولاً ، ثم تابعهم ونقل عنهم الكاتبون بعد ذلك.

ولكن الذين عاصروا الأحداث ، وعايشوها يذكرون تفسيراً آخر لوجود هذه الجاليات المسيحية ، فيقولون:

«إن الإدارة الإنجليزية المستعمِرة في السودان كان لابد لها من أن تستعين بجماعات من الموظفين والعمال ، ولما جلبتهم معها من مصر، وجدت أنهم سرعان ما يندمجون مع السودانيين ، ويرتبطون معهم بالإخاء والمصاهرة ، فيكونون متعاطفين مع أهل السودان ، لا يحققون ما تبغيه السلطة المستعمِرة من قهرٍ وبطش ، فلجئوا إلى الشام يجلبون من المسيحين بها ما يريدون ، ولكن هؤلاء الشوام لم يستطيعوا أن يتحملوا مُناخ السودان الحارّ، الذي يختلف كثيراً في طبيعته عن بلادهم ، فرجعوا إلى بلادهم عاجزين. فكان أن اتجهت الإدارة المستعمرة إلى مصر ثانية ، تجلب منها عمّالها وموظفيها، ولكن بشرط أن يكونوا من نصارى مصر. حتى لا يتمكنوا من الاندماج مع السودانيين ومؤاخاتهم ، بل يبقى ولاؤهم للإنجليز ، أرباب نعمتهم ، وإخوانهم في المسيحية.

هكذا . جاء القبط النصارى إلى السودان ، وأقاموا بها جاليات . هذه حقيقة ! ولكن فرق كبير وبون شاسع بين أن يكون مجيئهم هرباً من استبداد المصريين المسلمين بهم ، وبين أن يكون مجيئهم للعمل في خدمة السلطة المستعمِرة ؛ حيث لم يفلح في هذا العمل غيرهم.

أقول : منذ هاتيك الأيام بدأت بذرة هذا البحث ، وبدأت أنظر لتاريخ أمتنا ، وأتأمل في وقائعه وأحداثه ، وأعيد النظر فيما كان يعتريني من قلق غامض خانق، حينما أقلّبُ كثيراً من صفحات تاريخنا الإسلاميّ.

وبدأت أرصد -قدر جهدي- ما يقال ويكتب عن هذا التاريخ الإسلاميّ العظيم ، فوجدت عجباً.

وسأحاول أن أسجل في الصفحات التالية بعض وسائل ومظاهر تشويه تاريخنا الإسلامي:

،، ريخ :

معنى المناسب قبل أن نتكلم عن تشويه تاريخنا ، أن نبين معنى التاريخ ومفهومه.

وبعيداً عن المصطلحات الغريبة ، أو العبارات الغامضة ، نستطيع أن نقول : إن التاريخ ليس سجلاً للمعلومات والحوادث ، وجمعاً لها ، فلو كان كذلك، لكان مجرّد اجترارٍ للماضي للتسلية أو الفخر ، وما كانت العنايةُ بدراسته ، وما استحق هذا الاهتمامَ من رجال التربية ودعاة الحق ، والحثُّ على العناية به وإبرازه. يقول المفكر الإسلامي الكبير السيد «أبو الحسن الندوي»:« فلنكثر من تدريس كتب التاريخ ، من دراسة الحوادث والحكايات، فإن للحوادث والحكايات تأثيراً ليس للمنطق والبرهان والمقالات العلمية (نحو التربية الإسلامية ص ١٦).

وإذا لم يكن التاريخ سجلاً للأحداث ، «وأرشيفاً» للمعلومات ، فما هو ؟

إن التاريخ في حقيقته «ليس هو الحوادث » ، ولا سردها وتبويبها، ولكنه تفسير هذه الحوادث ، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها ، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات ، متفاعلة الجزئيات ، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحيّ في الزمان والمكان ».(سيد قطب: في التاريخ : فكرة ومنهاج: ٣٧).

ويقول المفكر المعاصر الدكتوررشدي فكّار:« إن أحد أضلاع الغائب المثلث ، هي غيبة التعرف الاستيعابي على الماضي ، فلابد من التحفظ على أهواء المؤرخين ، وإخضاع ما دوّنوه للتمحيص والتدقيق، ثم نخضع هذه الحوادث والوقائع الثابتة المؤكدة الصحيحة للتحليل والدرس ، ولفلسفة التاريخ، وبالدراسة الموضوعية يمكن أن نجد قُدرةً هائلة تعطينا ثقة في مستقبلنا »(محاضرة له بعنوان:الإنسان العربي بين التأزم والانطلاق).

وبهذا المفهوم للتاريخ تُهرع الأمم في الأزمات والنكبات إلى تاريخها ، تستلهمه العبرة والعظة ، وتستضيء به في حاضرها ، ومستقبلها.

والتاريخ بهذا المعنى ليس علمَ الماضي ، وإنما هو علم الحاضر ولذا كان حرص أعدائنا على طمس تاريخنا وتشويهه ، لتضليل المستقبل ، وطمس الطريق إلى المستقبل .

ما يتميز به التاريخ الإسلامي :

إذا كان تاريخ كل أمة ، هو ضوء مستقبلها ، ومجد حاضرها ، فإن تاريخ الإسلام أكبرُ من كل هذا ، وأبعد خطراً من كل تاريخ ؛ ذلك أن التاريخ الإسلامي في حقيقته هو التطبيق العملي للإسلام ؛ فالتاريخ الإسلامي هو الإسلام مطبقاً منفذاً ، فإذا كان القرآن الكريم والسنة الصحيحة هما شرائع الإسلام وهديه ، فإن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصحابته والمسلمين من بعدهم هي الإسلام مطبقاً منفذاً ، وإذا حاولت أن تفصل بين عمل المسلمين في القرون الأولى وبين الإسلام ، فأنت بين أمرين كلاهما خطير ، وأخطر من الخطير.

خطورة تشويه التاريخ الإسلامي :

وأحسب أن هذه الخطورة من الوضوح بمكان ، فهي تتمثل في ناحيتين:

أ - تشويه الإسلام نفسه ، حيث يظهر عجزُه عن التطبيق ، وأن يسود دنيا الناس ويحكمها . ولقائلٍ معاند أن يقول:مبادىء الإسلام وهديُه وشرائعُه أعظمُ وأجلُّ ما عرفته البشرية ، ولكنها منهاجٌ ربانيٌ لا يطيقه البشر !! وإلا فيم تفسرّون عجزَ صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنفسِهم عن الالتزام بهذا الإسلام ، منذ عهد عثمان إن لم يكن قبل ذلك ؟ حينما نُسلّم ونقرّ بهذا التشويه للتاريخ ، نُسوّغ للمعاندين الجاحدين أن يقولوا هذا .

ب- القضاء على النموذج والمثال الذي يُتّبع ويحتذَى ، فحين ينادي الدعاة بتطبيق الإسلام دينا ودولة ، عقيدة وشريعة ، سيجدون من يسأل : على أي نظام ؟ على أية هيئة ؟ على النمط الأموي؟ الذي كان وكان ..

.. أم على النمط العباسي ..؟! أم على النمط العثماني ..؟؟

فإذا قلنا : على نمط الخلفاء الراشدين . قالوا: على نمط عثمان بن عفان وما جرَّه على الأمة من فتنة ؟ وإذا قلنا : على النمط العُمري . ربما لا يمانعون ، ولكن يقولون: كانت فلتة، ولم تطل ، وانتهت بمقتل عمر ! ثم يقولون : وأي نظام هذا الذي يسقط بعد بضع عشرة سنة ؟!

هكذا يقول أعداء الإسلام ، بينما يجد دعاة الشيوعية النموذج الذي يدعون إليه، وكيف خرج بـ « روسيا »(١) من عهد القياصرة المظلم إلى عصر القوة والسيادة، والمشاركة في قيادة العالم بمقدار النصف .

ويجد دعاة الرأسمالية النموذج الذي ينادون به في أمريكا زعيمة العالم الحر ، ويجد دعاة «الليبرالية» نموذجَ الحرية والديمقراطية في الجلترا ، وهكذا..

نقول هذا لنؤكد أن الحديث عن تشويه التاريخ الإسلامي ، وضرورة إعادة كتابته ليس مسألة ترف ، وإنما هو أمرٌ يتصل بكياننا ، وبصميم عقيدتنا وديننا ، وأن نكون أو لا نكون .

مظاهر تشويه التاريخ الإسلامي :

إن هذه المظاهر لا تحتاج إلى دليل أو بيان ، فما عليك -إذا أردت أن تتأكد من ذلك ، وترى مظاهر هذا التشويه -إلا أن تسأل أيَّ دارس لهذا التاريخ : على أي مستوى من الدراسة من الابتدائي إلى الجامعة- أن يرسم لك بالكلمات والجمل صورةً لأي فترة من فترات التاريخ ، أو يلخص لك ما يعرفه عن أي عصر من عصور التاريخ ، وحينئذ ستسمع ما تدمى له القلوب.

وقد حاولت شخصياً شيئاً من ذلك حين سألت طلابي: من يوجز لنا في سطور صورة عهد عثمان بنِ عفان -رضي الله عنه- ؟ فكانت الإجابة

(١) قلنا ذلك قبل انهيار الاتحاد السوفيتي ، وسقوط الشيوعية ، ومع ذلك تبقى روسيا زعيمة الكومنولث الجديد ، نموذجاً يماري به الرافضون والمعاندون لكل ماهو إسلامي .

-بنفس الألفاظ تقريباً-: «كان -رضي الله عنه- رجلاً تقياً صالحاً ، ولكنه كان شيخاً كبيراً ضعيفاً، وكان فيه ضعف شديد نحو أسرته وقبيلته ، فأقطعهم الإقطاعات ، وولاهم الولايات بغير حق ، وغلبه هو أيضاً حب الدنيا، فاستولى على أموال المسلمين، وسكن بها القصور، وترفه وتنعم بها» كذا قال. وجميع زملائه يقرون ويوافقون .

والتجربة الثانية حين سألت : من يوجز لنا الحديث عن عصر «هارون الرشيد» ؟ -وكما توقعت- علت البسمة الخبيثة شفاه الجميع ، وكأنهم يقولون: اعفنا من الحديث في هذا الموضوع ، حتى لا نصرّح بما يقبح ذكره !!

إن تشويه التاريخ الإسلامي حقيقة واقعة ، يدركها كل من له إلمام -مجرد إلمام- بالتاريخ ، فلسنا بحاجة إلى تلمّس مظاهره. وإن عارض في ذلك معارض ، فمعناه : أنه آمن بما سمع ، وصدّق ما قرأ ، واعتقد أن هذه الصورة الشوهاء هي الحقيقة.

وسائل تشويه التاريخ الإسلامي

مثل كل محاولات الغزو الفكري تتم في هدوء ، وتلبس أقنعةً تجوز بها ، وتدخل إلى الأفئدة والعقول ، ووسائل تشويه التاريخ الإسلامي لا تقف عند حد ولا عدّ ، ولكننا نستطيع أن نشير إلى خطوطها العريضة على النحو التالي :-

١- التركيز على الأعمال العسكرية :

في كثير من الأحيان يقدّم التاريخ الإسلامي وكأنه تاريخ غزوات وفتوحات وحروب وبطولات وكفى ، وهذا الأسلوب يعمد إلى الأعمال العسكرية ، فيشبعها تمجيداً وثناءً ، وحديثاً عن التضحيات والبطولات الفذّة ، والمهارة في القيادة والتعبئة .. إلخ .

وربما يبدو للبعض أن هذا عمل جيد ، وأسلوب قيمٌ ، حيث يملأ النفوسَ حماساً وقوة ويملأ القلوبَ إعجاباً بالأسلاف الأمجاد الذين (دوّخوا العالم وهزموه). وقد يكون ذلك مطلوباً مرغوباً ، وهدفاً مقصوداً.

ولكن خطورة عرض التاريخ الإسلامي بهذه الصورة أنه ييسرّ السبيل للقائلين بأن الإسلام انتشر بحد السيف ، ويجعل أبناءنا عاجزين عن ردّ هذه التهمة.

كذلك. حينما ينطفيء هذا الحماس وهذه الفورة ، يبقى الشعور بأن الإسلام والأمةّ الإسلامية لم تقدم للحضارة والإنسانية شيئاً.

وإذا أردت دليلاً على ذلك ، فما عليك إلا أن تتناول أي كتاب من كتب التاريخ الإسلامي ، الذي يدرس في المدرسة الابتدائية ، أو الإعدادية ، أو الثانوية ، أو الجامعة ، وبدون اختيار ، وعشوائياً أمامي الآن كتابان: أحدهما:«التاريخ الإسلامي العام» للدكتور علي إبراهيم حسن الأستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة ؛ والثاني:« تاريخ العرب القديم وعصر الرسول » للدكتور نبيه عاقل الأستاذ بكلية الآداب جامعة دمشق ، فالكتابان مما يدرس في الجامعات . وإذا نظرت في الكتاب الأول تجد نسبة عدد الصفحات التي تحدثت عن المعارك العسكرية إلى عدد الصفحات التي تحدثت عن كل الجوانب الأخرى هى نسبة٨٢ : ١٨ أي ٨٠٪ من الصفحات تتحدث عن الأعمال العسكرية ، والعشرون الباقية تتحدث عن باقي الموضوعات: منذ ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم ،وإرضاعه ونشأته حتى وفاته.

والكتاب الثاني ليس أحسن حالاً من سابقه ، فقد عقد فصلاً بعنوان «محمد(٢) في المدينة» يستغرق ١١٧ صفحة شمل الحديثُ عن الجانب العسكري والمعارك الحربية فيها نحواً من مائة صفحة !!

* * *

٢- عدم إعطاء الأعمال العسكرية حقها من التفسير والتعليل:

ومع ما في التركيز على الأعمال العسكرية، والاهتمام بها ،وإبرازها من خطر، إلا أنهم يضيفون إليه خطراً آخر ، حين لا يعطون هذه الأعمالَ نصيبَها من التفسير والتحليل والتعليل ، فيعزلونها عن ظروفها التي وقعت فيها ،

(٢) صلى الله عليه وسلم .

ومبرراتها التي دعت إليها ، والعوامل التي أدت إلى خوضها.

وأقرب مثالٍ إلى ذلك «غزوة بدر» ؛ حيث تُعرض أحداث هذه الغزوة ، ووقائعُها بصورة كل ما فيها تمجيد لشجاعة المسلمين ، وكيف انتصروا مع قلة عددهم وكثرة عدوّهم.

ولعل من الأفضل أن أعرض ما كتبه أحد المؤلفين الكبار ، صاحب الكتاب المشهور الذي يُعدُّ مرجعاً هاماً من مراجع التاريخ الإسلامي ، وأعنى به الدكتورحسن إبراهيم حسن في كتابه« تاريخ الإسلام» ؛ فقد جاء في الجزء الأول ص ١٠٩ ما نصه بالحرف الواحد:« وفي رمضان من السنة الثانية للهجرة وقعت غزوة بدر الكبرى ، فقد ندب الرسول (صلى الله عليه وسلم(*)) نفراً من المسلمين لاعتراض قافلة قريش وهي قادمة من الشام ، فلما علم بذلك أبو سفيان بنُ حرب -رئيس القافلة- بعث إلى قريش من يخبرها باعتراض المسلمين لتجارتهم ، ويستنفرهم لاستنقاذها ، ثم غير طريقَه ، وتوجه إلى البحر وسار بحذائه حتى جاوز موقف المسلمين ، ثم انسل إلى مكة دون أن تُمس تجارة قريش بسوء . وقد التقى الرسول بقريش عند ماء بدر ، وكان عددهم يتراوح بين تسعمائة وألف ، فيهم العباس بن عبد المطلب عم الرسول (صلى الله عليه وسلم(*)) ، وأبو جهل بن هشام بن المغيرة فنصر الله المسلمين ، وقُتل سبعون من رجالات قريش وساداتهم ، أما المسلمون، فقد استشهد منهم أربعةَ عشرَ .

كان لهذه الغزوة أثر كبير في تاريخ الإسلام ، فقد كانت أولَ اصطدام جِدّي بين المسلمين وقريش ، انتصر فيها المسلمون على الكفار ، وتجلى فيه للمشركين مبلغ تمسك المسلمين بعقيدتهم وتفانيهم في نصرة دينهم . وقد أحفظ ذلك رجالات قريش ؛ فأجمعت أمرها على أن تغسل عار تلك الهزيمة بغارة أخرى تشنها على المسلمين»أهـ. وليس بعد هذا إلا بقية حديث عن أثر غزوة بدر في المسلمين والمشركين.

(*) الصلاة والتسليم ليست بالأصل مع أن المؤلف أشار إلى أن مرجعه سيرة ابن هشام،والطبري. فلماذا حذف الصلاة والتسليم ؟ ألا يدل ذاك على أنه ينقل عن أحد المستشرقين ، ويزعم أنه رجع بنفسه إلى ابن هشام والطبري .

وتستطيع أن تتناول بيدك عشرات الكتب التي كتبت عن غزوة بدر، فلا تجدها تعرضها إلا بهذه الصورة ، والاختلاف بينها ليس إلا في التفصيل والإجمال ، ولكنها جميعاً تقول : إن الرسول نادى في المسلمين: أن اخرجوا إلى طريق القوافل، لتعترضوا تجارة قريش وتأخذوها. فلما تيقظ لهم أبو سفيان وأفلت منهم ، اتجهوا إلى بدر، حيث فتكوا بالذين جاءوا ، فتكوا بقريش التي جاءت تنقذ تجارتها.

هكذا .. قطعٌ للطريق ! ونهبٌ للتجارة ! وإلا ففتكٌ بالنجدة التي جاءت لإنقاذها! ويقرأ شبابنا في الجامعات تاريخ نبيهم وصحابته بهذه الصورة ، فيترسب في أعماقهم ما يترسب ، ثم يُدعوْن إلى الإسلام والتمسك بهديه ، فيحارون ويضطربون !

ألم يكن في وسعه أن يقول : إنه باستقرار النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة بدأ عهدٌ جديد ونظام جديد ، لم تره جزيرة العرب من قبل ، بدأ لأول مرة ميلاد دولة ذاتِ حدود ومعالمَ ، الولاء فيها ليس للقبيلة ، ليس للدم ، ليس للعصبية ، فقد تآخى المسلمون من المهاجرين والأنصار ، وامتزج المسلمون على اختلاف القبائل وتباعدها ، بل وتصارعها وتحاربها ، بل وقوتها وضعفها ، ورفعتها وضعتها، لأول مرة كان في الجزيرة دولة تؤمن بعقيدة ، وتحمل رايتها ، ومن الطبيعي أن يكون لهذه الدولة حدود ، ومن حقها أن تحمي حدودها وتدفع عنها . وإذا كان طريق القوافل يمرّ في أرضها ، فمن حقها أن تسيطر عليه ، ومن حقها أن تصادر تجارات الأعداء التي تمر في أرضها. بهذا تقضي القوانين الطبيعية ، ومازلنا ليومنا هذا في عصر «القانون الدولي» نسمح لكل دولة أن تسيطر على الممرات الدولية التي تمر بأرضها ، وبالتالي تمنع أعداءها من استخدام هذه الممرات ، وتصادر كل من يخالف أو يعتدي ، وأقرب مثال إلى أذهاننا «قناة السويس » ومصادرة أي بضائع إسرائيلية تمرّ بها.

وكان من الممكن أن يقول : إن المسلمين خرجوا يعترضون تجارة قريش ، لأنها كانت في جملتها أموال المسلمين التي تركوها وراءهم عندما هاجروا متخفين مستترين .

ولا يحاول أحد أن يعتذر عن الكاتب بأنه غير مطالب بكل شيء عن الغزوة ، حيث من حقه أن يوجز أو يطنب كما يشاء .

أقول : لا يقبل هذا عذراً ، لأن الكاتب استمر في حديثه عن الغزوة وما يتصل بها ، فأفاض في خبر الغنائم وكيف قسمها المسلمون ، مبيناً أنها كانت مجال صراع وتنازع وحرص .وقد أحصيتُ ما كتبه عن نزاع المسلمين حول الغنائم بالسطر، فوجدته يزيد عن نصف ما كتب عن الغزوة وآثارها.

وهكذا تعرضُ الأعمال العسكرية معزولة عن ظروفها ، مقطوعةً عن ملابساتها؛ لتوحي بما توحي به من تشويه وإساءة !

* * *

٣- إعطاء تفسيرات لبعض الأحداث ودوافع لبعض الأعمال أقل ما توصف به الخبث وسوء النية:

والأمثلة على ذلك لا تقع تحت حصر :

* تعالَوا نقرأ في كتاب « تاريخ الإسلام » ج ١ ص ٢١٦ للدكتور حسن إبراهيم حسن مانصه:

« .. وجه «أبو بكر » همَّه بعد ذلك إلى إخماد الفتن والثورات الداخلية ؛ ليشغل العرب بالحروب الخارجية ؛ لأنها كانت تفي بما أمر به الدين من نشر الإسلام من جهة ؛ ولأنها كانت من جهة أخرى استغلالاً صالحاً لما جُبل عليه العربي من حب القتال ، لذلك لم يكد «أبو بكر» ينتهي من حروب الردّة الطاحنة، التي شنها على العرب المارقين ، حتى أرسل تلك الجيوشَ ، وزوّدها بالأمداد يتلو بعضُها بعضاً لفتح البلاد ، ونشر الإسلام فيها ..».

ثم نقرأ في كتاب «الدولة العربية» للدكتورالسيد عبد العزيز سالم، وهو يعدد العواملَ المساعدة للفتوح الإسلامية ، فيقول في صفحة ٤٦٦ مانصه:«ومن العوامل النفسية أيضاً ، حرصُ «أبي بكر» على ملء

الفراغ الهائل الذي ترتب على وفاة رسول الله(٣) ، فقد زعزعت وفاةُ رسول الله كيانَ الدولة العربية ، وساعد عليها التنازع على الخلافة وحركة الردة، ولولا حكمة أبي بكر وحُنكته السياسية ، لما أمكنه إعادة توحيد العرب ، وتقويم البناء ، ويبدو أن أبا بكر كان يميل الى شَغْل القوى التي تمكنت من قمع حركة الردة بمهامٍّ جديدة، حتى لا يتفرغوا للفتن التي ألفها العربُ في أوقات فراغهم ، فلم يجد أنسبَ من تسخير هذه الطاقة الكبيرة التي أثبتت قدرتَها وكفايتَها في حرب الردة ، في مشروعات حربية ، تحقق للدولة العربية الفتية أهدافها».أ.هـ بنص حروفه.

ولعل الأمر بهذه الصورة ، وبهذا الوضوح لا يحتاج إلى تعليق !! هكذا -بكل ذكاء- لا يحسدان عليه ! أدرك المؤرخان البارعان - وأمثالُهم كثير- السرَّ الخبيء ، وعرفوا طويّة الخليفة الراشد، وتفضّلوا عليه بلقب الحُنكة والمهارة السياسية ، ورأوْا بأعينهم ما أخفاه في ثنايا قلبه عن كل جيوشه، وصحابته ومستشاريه ، فافتعل المعارك مع جيرانه في الشرق والشمال ، وساق إليها عشراتِ الآلاف من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرّضهم للقتل والفناء ، حتى يشغَلهم عن الصراع الداخلي، ليثبت له سلطانهُ ، ويستقرّ ملكه، ويسن هذه السنة لمن بعده، فيستمرون على منواله ، في صراع الأكاسرة والقياصرة ، إلهاءً لأمتهم ، ولا أقول لجيوشهم ، فقد كانت الأمة كلها تخرج للجهاد !!

وبعد أن نهنيء هؤلاء المؤرخين «العظام جداً» على ذكائهم النادر، نستأذنهم في أن نسائلهم :

* ألم يتنبه واحد -فردٌ واحد فقط- من هذه الأمة ، فيسائلَ الخليفة عن جدوى هذه المعارك؟ في وقت كانت الأمة تناقش خلفاءها وأمراءها في النقير والقطمير ، وتسائلهم عن دقِّ الأمور وجلِّها ، بصورة من الشورى والحرية ، لم ترد الدنيا مثلها، ولا يستطيع هؤلاء المؤرخون أنفسهم إنكارها ؟! .

---

(٣) صلى الله عليه وسلم

* ثم هل يمكن أن تكون المعارك الحربية وسائلَ لإلهاء الأمم ؟!
أخالُ هؤلاء المؤرخين يقيسون ذلك على من يلهون شعوبهم بمباريات الكرة ونحوها !!

* وهل إذا جاز ذلك من الحكام خلفاء «ميكيافيللي» وتلاميذ مدرسته ، إذا جاز ذلك من هؤلاء فهل يجوز من الصدِّيق الراشد ، ومَنْ بعده من الراشدين خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

* ومن أمثلة ذلك الخطل في التفسير للأعمال والأحداث : ماقيل عن خروج «عائشة» -رضي الله عنها- يوم «الجمل» وأنها كانت بهذا الخروج والثورة على الإمام «علَي» تُنَفِّس عن ضِغْنها وكراهيتها للإمام علي منذ حادثة الإفك !

* وأيضاً تفسيرهم لخروج طلحة ، والزبير -رضي الله عنهما- لنفس الموقعة ، بأنهما كانا يطمعان في الولاية على بعض الأقاليم ، فلما غير علي -رضي الله عنه- عماله وولاته ولم يول ٍ واحداً منهما خرجا عليه اغتياظاً وحنقاً!(انظر التاريخ الإسلامي العام ص ٢٦٢ للدكتور علي إبراهيم حسن، وهو أيضاً من الكتب ذات الشأن في الجامعات المصرية) وانظر أيضاً (تاريخ الإسلام : ٣٧٢/١ للدكتور حسن إبراهيم حسن).

* ومنهم من يفسر خروج طلحة والزبير بأنهما كانا قد جمعا ثروات هائلة من الفتوح والمعارك ، وخافا عليهما من جدِّ «عليّ» واستقامته. يقول نبيه عاقل في كتابه «خلافة بني أمية» ص ٢٣:« ومن أجل الفصل في قضية موقف طلحة والزبير من عليّ ، واختلاف هذا الموقف قبل بيعته وبعدها، لابد أن نعود للتذكير بما أسلفنا من حديث عن أسباب النقمَة على «عثمان» ولاسيما الجانب الاقتصادي من هذه النقمة، بسبب توقف الفتوح واستئناف الأرستقراطية المكية القديمة نشاطها التجاري ، ونقلها لهذا النشاط من الحجاز إلى الأمصار ، حيث أثرى بعض رجالات قريش

ثراء فاحشاً ، وكنا قد ضربنا مثلاً بما حصل عليه كل من طلحة والزبير من أموال ومتاع وعقار وعبيد، جعلتهما من كبار رجال رأس المال اللذين يهمهم جداً أن تكون أمور الدولة بيد رجل يقبل بأن تسير الأمور على هواهما ، ووفق مصالحهما، وعليٌّ رجل جد واستقامة ودين ، ويعرفان سلفاً أنه قد يقف حجر عثرة في طريق مصالحهما المادّية، ولو آلت الخلافة لواحد منهما على ما له من سابقة في الإسلام ، وعضوية في شورى عمر، لضمنا لأنفسهما يُسراً في الأمور ، لن يتحقق لهما في ظل خلافة شخص كعلي».

هكذا .. ! أم المؤمنين «عائشة» الطاهرة المبرأة ، ومعها «طلحة» الخير ، و«الزبير» حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهما من المبشرين بالجنة ، هؤلاء الثلاثة يثيرون حرباً ضارية يقتل فيها الآلاف ، من أجل إحنٍ شخصية، أو طموحاتٍ فردية ، أو مصالحَ مادية !!

٤- ذكر أحداث في صورة أكبر من حجمها :

مثال ذلك : ما كتبه الدكتور «نبيه عاقل » في كتابه«تاريخ العرب القديم وعصر الرسول» عن مقتل «كعب بن الأشرف» ؛ فقد خصه بعنوانٍ وحده في الفهرس. وأبرزه بين الأعمال العسكرية التي عددها للرسول صلى الله عليه وسلم من غزوات وسرايا ، فصار مقتل «كعب بن الأشرف ، منسوباً إلى باقي الأعمال العسكرية ، كواحدٍ من بضع وعشرين عملاً عسكرياً ، مع أن مكان هذا العمل الطبيعي هو الحديث عن معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود ، ومعاهدته لهم ، وتسامحه معهم ، وحرصه صلى الله عليه وسلم على هدايتهم،وأمله في إيمانهم،وهم مع هذا يتآمرون عليه، ويدبّرون لقتله ، ويسبُّون المسلمين ويهجونهم ، ويشببون بنسائهم ، ويحرضون عليهم .. !! فإذا ذكر مقتل «كعب بن الأشرف» في مكانه الطبيعي هذا ، وفي هذا السياق ظهر أن القتل كان أقل جزاء يوقّع عليه ، وأنه قصاصٌ عادل.

* * *

٥- سوء التعبير والألفاظ في كثير من الأحيان :

فنجد بعض الكتاب يستخدم ألفاظاً وتعبيرات تضيف إلى سوء المعنى سوءاً آخر ، وإلى تشويه الأفكار تشويهاً آخر، مثال ذلك : ما نقرؤه في أحد الكتب التي تدرّس لأبنائنا في المرحلة الابتدائية ، في دولة إسلامية عربية كبرى ، يقول المؤلف : «كان ضعف دولتي الفرس والروم في عصر الخلافة الرشيدة مشجعاً للعرب على غزوة بلادهما ..» كذا ! خلافة رشيدة ويشجعها ضعف جيرانها على أن تغزوهم ! فأين الرُشْد؟ ويعلّم هذا لأبنائنا، في الوقت الذي يتنادى فيه العالم بالدعوة إلى السلام ، والتعايش بين الأقوياء والضعفاء ، في ظل رعاية القانون والحقوق !

في هذا الوقت نفتريْ على الخلفاء الراشدين ، ونقول لأبنائنا : إنهم استضعفوا جيرانهم فأغاروا عليهم ، ولا حرج عليهم حينئذ ، إذا جاش في أعماقهم سؤال يقول : وهل فعلت إسرائيل غيرَ هذا ؟ شجعها ضعف جيرانها على غزوهم!!

وفي نفس الكتاب نقرأ أيضاً : «اتسعت الدولة في عهد «أبي بكر» اتساعاً كبيراً على حساب دولتي الفرس والروم »!

وقد تكون الفكرة سليمة ، لكن سوء التعبير والألفاظ يشوه الفكرة ، ويكسو المعنى كله ظلالاً قاتمة تساهم في تشويه الموضوع كله.

ومثال ذلك : ما جاء في كتاب الدكتور نبيه عاقل « تاريخ العرب وعصر الرسول» ص ٤٦٦ :« ولعل أهم ما أظهرته غزوة بدر هو أن أبا جهل كان على حق حين اعتقد بأن «محمداً(٤)» ليس بالخطر الصغير الذي يستهان به، وأنه إذا كان لقريش أن تعيش بسلام ، فلابد لها من الخلاص منه» فأي سوء في أسلوب التعبير أكبر من هذا؟

ومثل هذا أيضا قول صاحب كتاب (التاريخ الإسلامي العام):« وكان علي يعتبر نفسه الخليفة الحق ، ولذا حاول إصلاح المفاسد التي وقعت في

---

(٤) صلى الله عليه وسلم

زمن سلفه عثمان ..» (انظر ص ٢٦٢) كذا !! (المفاسد التي حدثت في عهد عثمان)، وتسمونها خلافة راشدة.

وفي الصفحة التي تليها يقول :« ... وكان عبد الله بن عمر ، يرى في انزواء عائشة المحافظة على كرامتها ...» كذا (انزواء). وكرامة معرضة للامتهان في عصر الصحابة ، قدوة الأمة ونقلة الرسالة.

هذه مجرد نماذج ! وتستطيع أن تتناول أي كتاب من كتب التاريخ الإسلامي وتقرأ فيه بشيء من الاتئاد ، وستجد نماذج لا حصر لها.

* * *

٦- بتر الأحداث وعرضها من جانب واحد :

ونعني بذلك : أن يعرض الموضوع من زاوية واحدة، فيعرض بعض الحقائق دون البعض الآخر ، ولا يستطيع أحد أن يكذب هذه الحقائق ، ولكن ذكرها وحدها هو أخبث أنواع الكذب والتزييف والتضليل ، وهذا أمرٌ مشاهَد ملموس في حياتنا اليومية ، حيث يذهب الذاهب إلى إحدى المدن ويعود ، فيحدث بما رآه من مواخيرها، وملاهيها ، وفسادها، فيخيل إلى سامعه أن هذا كلُّ ما في المدينة.

وقد يعود آخر من المدينة نفسها ، فيحدث بما رآه من مساجدها ، ومكتباتها ، وعلمائها وأدبائها ، ومفكريها ، ومجاهديها ، فيخيل إلى السامع أن هذا كل ما في هذه المدينة !

وقد اتُّبِعَت هذه الوسيلة في كتابة التاريخ الإسلامي ، بصورة تكاد تكون عامة، فمع التركيز على الأعمال العسكرية ، وعدم إعطائها حقها من التعليل والتفسير ، مع هذا يذكر من الأعمال العسكرية -غالباً- ما قام به المسلمون من جهاد ، وصمود ، وبطولة ، ومهارة ، ثم ما حازوه من غنائم ، لكن لم نقرأ مثلاً في أحداث هذه الحروب ما كان يوصي به الخلفاء والأمراء قواد الجيوش من الطاعة ، والبعد عن المعاصي ، وعدم التعرض للنساء ، والأطفال، ومن لم يقاتل من الرجال ، وبلغة العصر : عدم التعرض للأهداف

المدنية.

كذلك لم نقرأ مثلاً عن كراهية «عمر» للحروب ، وأنه حين رُشّح له أحدُ القواد المهرة أقرّ بكفاءته ، ولكنه كره توليته لأنه متعجل مندفع ! ، ولم نقرأ مثلاً قولَ «عمر»الذي يؤكد كراهيّته للحرب حين قال:« وددت لو أن بيننا وبين فارس جبلٌ من النار ، لا يعلونه ولا نعلوه » وما ورد من أن المسلمين كانوا يتوقعون هجوم الفرس من قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وعلى هذا المنوال ذكر تاريخ الخلفاء المسلمين ، فهذا معنيٌ بالترفه والتنعم ! وهذا بالشعر والشعراء ! وهذا مفتون بالعروبة والعرب ! كاره للأعاجم محتقر لهم !! وهكذا .. ..

وإذا أردنا مثالاً من تاريخنا -هذا القريب- نجد المؤرخين للحملة الفرنسية يقولون لنا:« استيقظ الشرق علي طلقات مدافع نابليون ، وجاءت الحملة بأول مطبعة عرفها الشرق ، وأول معمل للكيمياء ، ورسمت أول خريطة للبلاد، وأصدرت أول صحيفة » وهذا صحيح !

ولكن كان يجب أن يقولوا أيضاً:إن الفرنسيين أولُ من نظموا المواخير والحانات، وأعطوْها التراخيص جهاراً ، وأولُ من أباحوا البغاء الرسمي ، وأولُ من أدخلوا السفور والفجور ! كان الأولى أن يقولوا هذا بجانب ذاك ، وأن يذكروا التخريب والتدمير ، وسفك الدماء ، واستنزاف خيرات البلاد....

بل قالوا أيضاً : إن الناس رأوا أول محاكمة عصرية ، ونظروا إليها بإكبار ، وعجبوا حين رأوا لأول مرة قاتلاً متلبساً لا يقتل لساعته ، وإنما يوقف أمره لحين التحقيق بطريقة عصرية متحضرة ! .. حيث يستقدمون له محامياً من « باريس» للدفاع عنه ، ثم يقف أمام المحكمة التي تتكون من عدة مستشارين ، ومجموعة من المحلفين ، حتى يكون الحكم عن يقين ، فيكون عادلاً لا تشوبه شائبة.

وهم بهذا يشيرون إلى ما كان من محاكمة «سليمان الحلبي» قاتل

«كليبر» . وكل هذا صحيح ! من حقهم أن يقولوه ! ولكن .. ..

ولكن كان يجب أن يقولوا أيضا: كيف كان حكم ُ المحكمة «العصرية المتحضرة»؟! وماذا كان قبل أن تنعقد المحكمة المتحضرة جداً !! . كان يجب أن يقولوا: إن حراس «كليبر» ومعهم جماعات من جنود الاحتلال الفرنسي ، انطلقوا في شوارع القاهرة ، يقتلون كلَّ من يقابلهم من الرجال والنساء والصبيان ، حتى قتلوا نحواً من مائتي شخص انتقاماً لمقتل كليبر ، قبل أن تنعقد المحكمة «العصرية» ! .. كذلك لم يقولوا : إن حكم المحكمة «العصرية جداً» ! كان ينص على :

١ - يقتل كل من حامت الشبهة حول اشتراكه مع سليمان أمام عينيه !

٢ - تشوى يد سليمان اليمنى حتى المرفق في النار ، وهي متصلة بجسده !!

٣ - ينفذ فيه حكم الإعدام ، بأن يُجلسوه على آلة حادّة تمزّق أمعاءَه ! هكذا.. أعجب آلة جهنمية تفتق عنها ذهن المحكمة «العصرية جداً» !!

وقد سخر منهم سليمان الحلبي ، أبلغ سخرية ، حينما طارت جمرة نار إلى ذراعه، فطلب إبعادها قائلاً: إن الحكم ينص ُ على حرق اليد فقط !

وعندما طلب شربة ماء وهو في النزع الأخير، وهمَّ أحد الجنود بإعطائها له ، منعه رئيس هيئة التنفيذ قائلاً: «إن الحكم يرمي إلى إطالة تعذيبه ، وقد تساعد شربةُ الماء على تخفيف آلام الحشرجة ، وتسهل خروج الروح» .(ارجع في هذه النقطة إلى مذكرات «فرانسوا» -أحد رجال الحملة الفرنسية- وقد ذكر هذا جلال كشك في كتابه « .. ودخلت الخيل الأزهر».!

كذلك لم يقولوا شيئاً عن وقع هذا الغزو الفرنسي ، وأثره في العالم العربي الإسلامي ، فمن الثابت تاريخياً : أن أهل الحجاز أعدوا جيشاً لمساندة مصر والشام ، وأعلنوا الغضب والحزن والآسى ، وجرّدوا الكعبة من ستائرها، إظهاراً للألم على ما أصاب جزءاً من بلاد الإسلام ! وقد عبر الجيشُ العربي البحرَ الأحمر فعلاً ، ووصل إلى صعيد مصر ، كما قامت بلاد الغرب -ليبيا

وما يليها- بإعداد قوات مماثلة لذات الغرض !

كل ذلك لا يقال !! ولم نقرأه في السائد من كتب التاريخ ، بل كلها تصور الحملة الفرنسية بأنها هي التي فتحت باب العلم ، والنور والحضارة إلى بلاد الشرق!!

* * *

٧- استخدام الدراسات الأدبية في تشويه التاريخ :

وهذه الوسيلة لا تقل عما سبقها من الوسائل ، بل ربما كانت أخطرَ منها، وأبعدَ أثراً ، ذلك أن اعتماد الأدب -بكل فنونه- مصدراً من المصادر للمعلومات التاريخية الثابتة يقوم على أساس القاعدة النقدية المسلّمة التي تقول : «إن الأدب مرآة العصر الذي نشأ فيه ، فثبت في الأذهان ، وقرّ في الأفهام أن ما ورد في شعرٍ أو نثرٍ ، هو اليقين الصادق ، الذي لا يقبل الشك.

مع أن هذا ليس علي إطلاقه ، بل «مرآة الأدب» تعكس واقعاً ملّوناً بعاطفة الأديب ومصوّراً بانفعالاته ، وقد قرر ذلك رجال النقد والأدب المقارن أنفسهم ، يقول أستاذنا الدكتورمحمد غنيمي هلال في كتابه « الأدب المقارن» ص ٤٠٢ - عن صورة ألمانيا في أدب « مدام دي ستال» الفرنسية ، وكيف صورتها من خلال ذاتها صورة لا تطابق الواقع -:« هاجرت مدام دي ستال إلى ألمانيا ، ضائقة ذرعاً بما تعانيه فرنسا من طغيان نابليون ، ومن تحكمه في حرية الأفكار فيها، فكانت تنشد في هجرتها بلداً تتمتع فيه بتلك الحرية ، التي حرمتها في فرنسا ، فجاءت آراؤها في كتابتها مشوبة بنوع من المثالية التي تحلم بها ، أضْفتها هي على كل ما رأت ، وما شرحت، وكان كتابها عن ألمانيا بمثابة : صلوات طريد ، ينشد ملاذاً في عالم مثالي، وقد أثّرت بإدراكها هذا في جيل من الكتاب والرحالة الفرنسيين ، فظلت ألمانيا في إنتاجهم بلد الحرية الفنية في المسرحيات والشعر، كما ظلت بلدَ الحياة المرحة الطليقة، التي يتمتع أهلها بلذات الحياة ، في كنف حرية رحبة الآفاق .

وبالرغم من أن الصورة التي رسمتها مدام دي ستال لألمانيا كانت غيرَ صادقة ، ومبالغاً فيها ، فقد ظلت ذاتَ أثر بالغ في معاصريها ، ومن جاء بعدهم من أدباء النصف الأول من القرن التاسع عشر » .

هكذا .. أكثر من نصف قرن ، حتى تغيرت ، أو بدأت تتغير الصورة التي رسمتها للمجتمع الألماني ، ومن يدري إلى أي اتجاه تغيَّرت ؟ هل تغيَّرت إلى القرب من الواقع ؟ أم بعدت عنه من جانب آخر ، وناحية أخرى؟!

ثم يؤكد الدكتور«غنيمي هلال» هذا المعنى ، ويبين سببه وعلَّته فيقول:« فلم تر مدام دي ستال» مثلاً من ألمانيا غيرَ رجال الأدب من المجتمعات الأرستقراطية ، في مقاطعة «ساكس» وغيرَ رجال السياسة ، وبعض الفلاسفة في برلين ، وبمخالطتها لهؤلاء تحددت نظراتها الفاصلة في تصويرها لألمانيا».

ومن هنا لا يمكن أن يقبل قول من يتخذون شعر« عمر بن أبي ربيعة» صورةً للمجتمع في عصره ، ولا شعر «أبي نواس» ، «ومسلم بن الوليد» ، «وبشار» ، وقصص «ألف ليلة» مصدراً لا يرقى إليه الشك من المصادر التي تصور الحياة في جوانبها ونواحيها المختلفة.

والخطر الثاني في الدراسات الأدبية : يكون في تفسير الظواهر الأدبية ، وعوامل شيوعها.من ذلك مثلاً: تعليل شيوع الغزل في العصر الأموي . حيث يقولون:

« لم يكن الغزل فناً مستقلاً ، ينظم فيه الشاعر لذاته في العصر الجاهلي، ولكنه أصبح فناً مستقلاً ، وأصبحت القصائد تنظم من أجل الغزل وحده ، ومن أهم أسباب ظهور هذا الفن :

١ - أبعد الأمويون أبناء المهاجرين والأنصار عن السياسة ، واسكنوهم الحجاز ، ومنحوهم الأموال الطائلة ، ووجد هؤلاء الفراغَ والأموالَ ، فبدءوا ينظمون هذا اللونَ من الشعر.

٢ - كثرت السبايا نتيجة للفتوحات الإسلامية ، وكان معظم أبناء المهاجرين والأنصار من الشباب ، فانصرفوا إلى الغزل وسماع الغناء ، وقال هؤلاء شعراً رقيقاً ، أبدعوا فيه ووقفوا شعرهم عليه»أهـ.(من كتاب النصوص والأدب للصف الأول الثانوي ، صادرعن وزارة التربية ، بمصر).

هكذا يفسرون شيوع الغزل !! بضربة واحدة يصيبون الخلفاء الأمويين ، وأبناء الصحابة معاً ! فالخلفاء خبثاء ، يشجعون على اللهو والفساد ، حتى يُتلفوا الشباب ، ويُلهوه عن حقوقه السياسية ، وكذلك وصموا الشباب من أبناء الصحابة بأنهم «مغفلون» ! لم ينتبهوا لخبث خلفاء بني أمية ومكرهم!!

والأعجب من ذلك : أنهم حين يفسّرون ظاهرة «شيوع الغزل في العصر الجاهلي» ويعللون لها يقولون :« شاع الغزل في العصر الجاهلي لأن العربي بطبعه ذو حس مرهف ، ميال للجمال محبٌ له ، ولأن حياته تقوم على الحلّ والترحال ، فتشعل الشوق َ في قلبه ، وتحرك لواعجه ، ولأن طبيعة بلاده المكشوفة الساطعة الضوء الصافية السماء -تنعكس على نفسه إشراقاً وحباً، فتدفعه إلى الغزل ».

ولك أن تضحك أو تبكي أو تصرخ : ما هذا ؟ يتغزل العربي الجاهلي، فيقولون : ميال للجمال ! ذو حس مرهف ! ، ويتغزل العربي المسلم، فيقولون : مغفّل يُلهيه الحكام عن حقّه في السلطة ، أو مراقبتها . ياسبحان الله !! كيف تحوّل العربي من رقيق الحس ، محب للجمال ، إلى مغفّل ، مضحوك عليه ، في نحوٍ من أربعين سنة؟!

وخطورة الأدب والدراسات الأدبية ، تأتي من أنها تقدّم على أنها عمل فني ، ودراسة فنية بحته ، غير مقصود إلى ما تحمله من أفكار ، وهي تستقر في الأذهان بدون تنبه لخطرها ، وتستولي على الأذهان على أنها حقائق ، من غير أن يشعر قارئها ودارسها.

من آثار
تشويه التاريخ على الفكر الإسلامي

لقد كان أخطر وأكبر انحراف فكري في هذا العصر الحديث ، هو ما كتبه الشيخ «علي عبد الرازق » في كتابه «الإسلام وأصول الحكم».

ونستطيع أن نقول :إن وراء هذا الانحراف ، وهذا التردي الخطير الصورة المشوّهة لتاريخ أمتنا وأئمتها وخلفائها، ولا نقول ذلك عن استنتاج أو تخمين ، بل نقوله عن يقين نملك الدليل عليه .

وذلك هو قوله في كتابه ص ٢٢ ، ٢٣:« ولولا أن نرتكب شططا في القول ، لعرضنا على القارىء سلسلة الخلافة إلى وقتنا هذا ، ليرى على كل حلقة من حلقاتها طابع الغلبة والقهر ..» فهو لم ير من تاريخ أمتنا إلا غلبة الخلفاء وقهرّهم للأمة الإسلامية ، ومن هنا أباح لنفسه أن يهاجم مبدأ الخلافة، ثم ينكر علاقتها بمبادىء الإسلام وتعاليمه.

وهكذا كان كل ما جاء به من أباطيل مبنياً على رؤيته المشوهة للتاريخ ، ومنبعثاً عن إحساسه المغلوط بماضينا المجيد !

وتطالعنا إحدى المجلات التي ترفع لواء الفكر الحر الجديد ، من أجل المستقبل الأفضل السعيد ، بمقال لكاتب من دعاة الإصلاح في هذا الزمان ، ونجد عنوان المقال: «لئلا يعود هارون الرشيد ..» !

أي والله !! المسكين خائف .. خائف من عودة هارون الرشيد !! مذعور من هارون الرشيد !! لماذا هو خائف من عودة هارون الرشيد ؟!

لن نناقش الأفكار التي وردت في المقال الآن ، ولكن يكفي هذا العنوان، .. ماذا يحمل من معانٍ ؟ وماذا يعطي من دِلالات ؟!

إنه خائف من عودة هارون الرشيد . ليس خائفاً علي نفسه ! ولكنه بالقطع خائف على الأمة !!

وحق له أن يخاف ! فصورة «هارون الرشيد» التي استقرت في ذهنه -وهي للأسف وبكل مرارة .. في ذهن عامة المثقفين والمتعلمين - صورة هارون الرشيد التي تقفز أمام الأعين ، حينما يرن اسمه في الأذن ، صورة الغناء والجواري ، والحرير والعطور ، والترف والخمور ، وأبي نواس والمضحكين ، حتى إننا نجد بعض الفنادق الكبرى في بعض البلاد الإسلامية تُطلق على قاعة الرقص والخمر«قاعة هارون الرشيد» ! من هنا فزع الكاتب المصلح(!) من عودة هارون الرشيد ، وبالتالي من عصر هارون الرشيد ! ومن المبادىء والأسس التي قام عليها حكم هارون الرشيد!!

* ومن أمثلة هذه الآثار أيضاً : ما حدث ذات مساء -عقب محاضرة عن تطبيق الإسلام ، وكيف يكون ؟ وماذا تجنى الإنسانية من ورائه ؟- فقد وقف أحد الرجال المشهود لهم بالفضل والدين والخلق ، ومن الممتازين في مجال الفكر والثقافة ..وقف هذا الأستاذ الفاضل ليقول:إن ما سمعناه كلام رائع لاشك ، وأمل مشرق لاشك ، وفكر منطقيٌ مقنع لاشك ! ولكن الواقع يكذب ذلك ، ويوحي لنا بأن هذا التطبيق أمرٌ مستحيل !! فمنذ عصر الخليفة الثالث بدأ الانحراف والعجز عن التطبيق !! .. .. إلخ .

والعجيب ! أن كلامه وقع موقع التصديق من جمهور الحاضرين ، ولولا أن واحداً ممن عصم الله ، وأدرك ما يدبرٌ لهذه الأمة ، أجاب هذا المعقبَ ، وكشف له ما أصاب تاريخنا من تشويه ، لولا ذلك ، لانصرف جمهور الحاضرين ، وهم لهذا المعقِّب مصدقون ؛ فهو ليس فرداً ولكنه نمطٌ ، أو هو النمط السائد بين المتعلّمين والمثقفين !!

ويقع تحت تأثير تشويه التاريخ كاتب كبير ، من الذين يكتبون باسم الإسلام ، ويحملون قلمه ، ويكتبون عن الثقافة الإسلامية ، وأعني به : الدكتور«إسحاق موسى الحسيني» من أعلام المفكرين ، وأستاذ الأدب العربي في معهد البحوث والدراسات العربية التابع للجامعة العربية ، وما يكتبه دائماً موضع ثقة ، وقبول من عامة المثقفين.

ومع ما للرجل من الفضل والمنزلة ، والعلم والثقافة جرى قلمه -عفواً- بكلمات ومقولات رسخها الغزو الفكري في وجداننا ، من مثل قوله :« غزا العرب مصرَ في أوائل القرن الأول الهجري .. غزا المسلمون شمال إفريقية عام ٢٣هـ ٦٢٠م بعد أن أنهى عمرو بنُ العاص احتلالَ مصر ، ولكن الغزو الفعال حدث بعد حوالي أربعين عاماً» !!!

وقد ورد هذا على قلم الكاتب الكبير في كتاب «الإسلام الصراط المستقيم» وهو كتاب اشترك في كتابته عن الإسلام تسعةٌ من كبار الكتاب المسلمين من مصر، وتركيا وفلسطين ، وإيران ، وباكستان ، والصين ، وأندونيسيا، ونشرته أولاً بالانجليزية مؤسسة «فرنكلين» ، ثم ترجم إلى اللغة العربية.(راجع جريدة الأهرام ١١ نوفمبر سنة ١٩٧٧م، حيث كتبت الدكتورة عائشة عبد الرحمن -بنت الشاطىء- مقالاً في نقد ما وقع فيه الدكتور إسحاق موسى الحسيني من أوهام تاريخية وزلاتٍ فكرية).

والأمر لا يقف عند هذا الحد ، فيقع أسيرَ تشويه التاريخ أحد علماء الإسلام الكبار، وهو الشيخ «عبدالجليل عيسى"رحمه الله"» حيث يقول في كتابه (اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم) ص: ٢٥ بما قال به المؤرخون: من أن «عمرو بنَ العاص » خدع «أبا موسى الأشعري» ويقول بها الشيخ - ذاهلاً عن أنه يصف أحد الصحابيين الجليلين بالتدليس والتمويه والخداع ، والآخر بالغفلة والبلادة -ناسياً ما أجمع عليه من يعتد بقولهم من عدالة الصحابة- رضوان الله عليهم- وما شهد لهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من الأفضلية والمزية ، وغافلاً عما حققه « ابن العربي» في مسألة التحكيم من أنه لم يكن من «عمرو» خدعة ، ولا من « أبي موسى» غفلة.(انظر العواصم من القواصم ص ١٧٢) نجد الإمام «ابن العربي» يقول:

«وقد تحكم الناس في التحكيم ، فقالوا فيه ما لا يرضاه الله ! وإذ لحظتموه بعين المروءة -دون الديانة- رأيتم أنها سخافة حمل على سَطرِها في الكتب -في الأكثر- عدم الدين ، وفي الأقل جهل متين ..» ! ثم عرض الروايات ونقد ومحص ، ونفى وأثبت ، حتى أبان وجه الحق وبرأ الصحابيين الجليلين ، ويحتاج هذا الموضوع لبحث خاص.

وبعد ، فأضرع إلى الله العليّ القدير أن تكون إطلالة المسلمين على القرن الخامس عشر الهجري مجالاً للمراجعة والتدبر فيما مضى ، وحسن تخطيط لما يستقبل ، وأن يكون تاريخنا أول ما نراجع ، فننفي عنه ما علق به ، ونزيل ما أصابه من تشويه وتحريف ، حتى نتخذ منه عوناً على مستقبلنا ، وضوءاً لطريقنا المستقيم إن شاء الله.

* * *